

مكانة الحضارة العربية الإسلامية في فكر الشاعرين يوهان جوته ومحمد إقبال

د. محمد العربي بوعزيزي
جامعة الزيتونة (تونس)

دعت عدة منظمات إقليمية وعالمية إلى جعل سنة 2001 عاما للحوار بين الحضارات تطبيقا لنداء الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي والجمعية العامة للأمم المتحدة القاضي بإرساء "استراتيجية حضارية عالمية هادفة إلى إعلان ميثاق عالمي للحوار بين الثقافات والحضارات، على أساس التعايش المشتركة للمبادئ العليا والقيم الأخلاقية السامية التي تنطوي عليها تلك الحضارات الإنسانية بما فيها الحضارة الإسلامية"⁽¹⁾.

وفي هذا النطاق تندرج مداخلتي "مكانة الحضارة العربية الإسلامية في فكر الشاعرين والفيلسوفين يوهان جوته (1749م - 1832م) ومحمد إقبال (1877م - 1938م).

ولسائل أن يسأل لماذا اختيار البحث في مكانة الحضارة العربية الإسلامية ؟ ولماذا تناولها في فكر الشاعرين جوته وإقبال وما صلة ذلك بمبحث الحوار ؟

(1) دعوة لاستراتيجية حضارية، صحيفة الخليج الإماراتية، العدد 7292، بتاريخ (الجمعة 21 محرم 1420هـ/ 7 ماي 1999م)، ص 7.

1 - دواعي الاختيار :

في الواقع هناك عدّة دوافع لاختيار هذا الموضوع وتتمثل أهمّها في :

- أهمية الحضارة العربية الإسلامية ماضيا وحاضرا ومستقبلا.
- اهتمام الباحثين الألمان بالثقافة والحضارة العربية الإسلامية والإشادة بمكانتها تواعلا بينها وبين الثقافة الغربية عامة والألمانية خاصة.
- تحقق ذلك التواصل الثقافي والحضاري عن طريق شعر جوته وإقبال خلال القرنين التاسع عشر والعشرين وخاصة في الديوانين : "الديوان الشرقي" للمؤلف الغربي (جوته) وديوان "بيام مشرق" رسالة المشرق التي جاء فيها جواب إقبال لجوته بعد مضي قرن من الزمان.
- تواصل الروابط بين ألمانيا والعالم العربي باعتبارها الدولة الوحيدة من الدول الأوروبية التي لم ترتبط معه بالاستعمار والتي كانت ملاذا⁽²⁾ لأبرز زعماء حركات التحرر الوطنية العربية في كل من مصر وسوريا والعراق ودول شمال إفريقيا وخاصة تونس والجزائر في مطلع القرن العشرين.
- إدراك الشاعرين جوته وإقبال لمكانة الحضارة العربية الإسلامية وكلفهما بالعرب وبالإسلام ونبيه الكريم وتخليد ذلك في شعر كل منهما وفي مؤلفاته.
- رد الاعتبار لهذين الشاعرين العالميين اعترافا بجليل خدماتهما وإنصافهما لثقافتنا وحضارتنا العربية الإسلامية التي أدركا بثاقب فكرهما وعمق تحليلهما مكانتها وفضلها على الحضارات السابقة

(2) الإسلام في ألمانيا، عدد تاريخي بمناسبة العيد الالفى للأزهر الشريف، 5 مارس 1993.

واللاحقة وما يمكن أن تقدمه من قيم روحية وإنسانية للبشرية
هي في أشد الحاجة إليها في عصرنا الحاضر (3).

2 - جوته وإقبال والحضارة العربية الإسلامية :

إنّ المتأمل فيما تركه الشاعران الفيلسوفان يوهان جوته ومحمد إقبال من تراث أدبي يقف على مكانتهما العالمية المرموقة وإمام كل منهما بقضايا عصره إماما عميقا واشتراكهما في إقامة حوار مثمر بين شعراء ومثقفين الغرب والشرق فكانا وسيطين بارزين بين الثقافة الإسلامية والثقافة الألمانية.

ومما يزيد في قيمة عالميتهما انفتاحهما على الأدب العالمي عامة والأدب العربي خاصة بدراستهما للثقافة العربية الإسلامية لشدة إعجابهما بالعرب والمسلمين وبحضارتهم التي ملكت عليهما وجدانيهما وقلبيهما فسعيا إلى تقريبها من الأذهان بعد عمق اطلاع ودراسة وتمثّل لمفاهيمها.

فالشاعر الألماني جوته يضعه الدارسون في مرتبة رابع عظماء الأدب الغربي إلى جانب هوميروس ودانتي وشكسبير (4).

أما إقبال، فقد عرفه العالم شرقا وغربا شاعرا وفيلسوبا معاصرا وصاحب نظرية إصلاحية متميزة عرفت بنظرية الذاتية (5) ضمنها دواوينه الشعرية ومحاضراته الفلسفية التي ترجمت إلى أغلب لغات العالم الحية.

(3) فايشر مانونيل ، الشرق في مرآة الغرب، نشر دار سيراس للنشر، تونس، 1983، ص 51 - 52.

(4) مومزن كاترينا ، جوته والعالم العربي، سلسلة عالم المعرفة، عدد 194، مطابع الكويت، ترجمة عدنان عباس، الكويت، 1995، ص 11.

(5) نظرية الذاتية، هي مدار فلسفة إقبال التي بنى حولها منهجه الإصلاحية ضمنها ديوانيه الشهيرين أسرار الذات ونفي الذات، خودي ويخودي أي فلسفة الفرد والجماعة والتي جاءت أيضا ماثورة في دواوينه الشعرية الأخرى.

وقد اهتم بفكره العالمي باحثون من أصقاع مختلفة، منهم مستشرقون كثيرون أشادوا بمكانته العالمية وعرفوا بسيرته وفلسفته وشعره حتى قال فيه الشاعر الألماني هرمان هيسه (H. HESSE) : "إن محمد إقبال ينتمي إلى ثلاثة أحياء روحية هي: منابع آثاره العظيمة، وهي : حيز القارة الهندية وحيز العالم الإسلامي، وحيز الفكر الغربي، فهو مسلم كشميري الأصل مثقف بالقرآن وبالفيديانتا وبالتصوف - الفارسي- العربي، وفي نفس الوقت واقع تحت تأثير الفلسفة الغربية ومشاكلها المعقدة. قرأ وفهم برجسون (BERGSON) ونييتشه (NIETZSCHE) يقودنا في ممرات لولبية ترتفع شينا فشينا داخل مناطق عالمه الخاص، لم يعد متصوفا بعد، ومع ذلك فإن جلال الدين الرومي هو الذي باركه. لم يعد ينتمي بعد إلى أتباع هيجل (HEGEL) أو "برجسون" ومع ذلك بقي فيلسوفا... وأن أمنية أحلامه إنسانية متحدة باسم الله وتحت خدمته. أما الذين يتجهون روحيا إلى الشرق... فيحبون آثاره كالديوان الشرقي - الغربي" (6).

يعد الشاعر الألماني يوهان جوته أحد رواد الاستشراق الذين اهتموا بالشرق الإسلامي في ألمانيا ومن الذين تأثروا بالحركة الأدبية الرومنطقية وبأثر الأدب الشرقي في الأدب الألماني في عصره بدءا بالمستشرق هيردر (HERDER) (1744م - 1803م) الذي كان له الفضل في لفت انتباه جوته إلى الأدب العربي وحضارة العرب بما فيها من قيم ومبادئ إنسانية سامية وهو الذي يقول في هذا الغرض : "إن الأدب العربي تعبير صادق عن الشعب العربي وعن لغته وأخلاق حياته ودينه وإحساسه. وهو كبير وغني وشديد في صورته عجيب ولامع في وصفه غال وصالح في علاقاته بالدين الإسلامي" (7).

(6) فايشر، الشرق في مرآة الغرب، ص 75 - 76.

(7) المرجع نفسه، ص 65 - 66.

تشرب جوته أثر الترجمات الألمانية لمضامين الأدب الشرقي عامة والأدب العربي خاصة وما تركه هيردر في مؤلفاته في هذا المجال واطلع على حقيقة حضارة الشرق عامة والحضارة العربية الإسلامية خاصة وقارنها بحضارته التي ينتمي إليها فوجدها فاقدة لجملة من القيم الإنسانية النبيلة كالإخاء والمحبة والسلام والتوازن الروحي فدعا بني جلدته إلى التوجه إلى الشرق ممثلاً في الإسلام وحضارته ليقفوا على حقيقته وليعوضوا ما فقدوه من تلك القيم طارحاً أسئلة تعكس حيرة وجودة قلقة تضمنتها مؤلفاته العديدة وخاصة ديوانه الشهير "الديوان الشرقي للمؤلف الغربي"⁽⁸⁾.

وقد أشاد جوته في ديوانه هذا بطبيعة الإنسان ودعاه إلى التفاؤل والإقبال على الحياة، ودعا إلى المؤاخاة بين الأمم والشعوب⁽⁹⁾.

وقد أراد جوته بتأليفه ذاك إقامة جسر فكري يصل الشرق بالغرب، إذ يصادف المرء في العديد من صفحات الديوان دعوات غير مباشرة من الشاعر لحسن الجوار بين أبناء ديانات التوحيد وغيرهم من جميع الأديان⁽¹⁰⁾.

ويأتي محمد إقبال بعد مضي قرن من الزمان ليحيب عن تساؤلات جوته وحيرته في ديوانه الشهير (بيام مشرق) رسالة المشرق كما ترجم ذلك الباحث عبد الوهاب عزام. وكان إقبال قد كتب في أعلى الديوان الآية الكريمة "ولله المشرق والمغرب"⁽¹¹⁾ ثم كتب تحت عنوان الديوان "بيام مشرق" ثم كتب تحت ذلك "في الجواب على ديوان الشاعر

(8) جوته، الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، ترجمة عبد الرحمان بدوي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة، مصر، دون تاريخ، ص 32.

(9 - 10) المرجع نفسه، ص 10.

(11) البقرة : 115.

الألماني جوته". وقد كشف إقبال عن الدافع الذي حدا به إلى وضع "بيام مشرق" قائلا : "ليس بي من حاجة إلى أن أقول شيئا عن "بيام مشرق" الذي يظهر بعد مائة سنة من "الديوان الشرقي الغربي" وعلى ما سيرى القراء بأنفسهم. فإن الهدف الرئيسي هو عرض ذلك الواقع الأخلاقي والديني والقومي الذي يمسّ التكوين الداخلي للأفراد والأمم... وقد حاولت في أعمالي أن أبرز هذه الحقيقة المؤكدة" (12).

وإذا كان جوته قد تحسّر في "ديوانه الشرقي" على الغرب الذي أصبح ماديا للغاية في مظهره - كما يعلق أحد الباحثين المحدثين - (13) وتوقع أن يخرج الشرق برسالة روحية، فقد جاء إقبال بعد أن انقضى على ديوان "جوته" قرن كامل من الزمان ليلقي درسا على بلاد الغرب يذكرهم بأهمية الأخلاق والدين والحضارة ويؤكد على الحاجة الماسة لغرس الشعور بالغيرة والحركة ويحث على العاطفة ويشرح لأوروبا كيف أن الحياة لا يمكن أن تسمو وترتفع إلى علّ ما لم - وحتى - يتعلم الإنسان ما هي الروحية" (14).

ولعل هذا ما دفع بالشاعر جوته في ديوانه المشار إليه إلى الهجرة إلى الشرق روحيا لا جسديا حيث الصفا والظهر مثلما جاء في بعض قصائد ديوانه بعنوان (هجرة) حين قال :

"دعوني وحدي مقيما على سرج جوادي
وأقيموا ما شئتم في دياركم ومضارب خيامكم

(12) إقبال ، مقدمة ديوان بيام مشرق ، ترجمة: عبد الوهاب عزام، نشر مجلس إقبال، كراتشي، باكستان، 1951، ص9.

(13 - 14) معوض أحمد ، العلامة محمد إقبال، حياته وآثاره، نشر الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر، 1980، ص 246.

أما أنا فسأجوب من الأنحاء قاصيها على صهوة فرسي
فرحا مسرورا لا يعلو على قلنسوتي غير نجوم السماء" (15)

وصور جوته تأهبه للرحيل والهجرة الروحية إلى الشرق الذي
ينشد فيه الفرج بعد الضيق قائلا :

"ولله المشرق

ولله المغرب

والشمال والجنوب

يستظللان بالسلام بين يديه" (16)

وقد شعر إقبال بحنين جوته إلى الشرق وتوجهه الروحي وكلفه
بالحضارة العربية الإسلامية ممثلة في رادتها العرب وفي الإسلام ونبیه
الكریم فقدّره على كل ذلك تقديرا كبيرا وأبدى إعجابه بترائه الأدبي
والفكري وخاصة الشعري منه مثلما تجلّى في رسالة بياض مشرق وصار
جوته بذلك المثل والنموذج لصنعة الشعر في نظر إقبال فكان أحب إليه
من سائر شعراء الغرب والشرق كلهم عدا شيخه جلال الدين الرومي.

وقد كتب إقبال مصورا سعة خيال جوته مبررا مكانته الفكرية
والشعرية مقارنة إياه بما كتبه هو نفسه معتبرا إياه بمثابة الأخ الروحي
لاشتراكهما في نفس التوجه الفكري والحضاري والأخلاقي وإقرارهما
بمكانة العرب والإسلام ونبیه الكرم وما نجم عن ذلك من ثورة حضارية
في تاريخ الإنسانية فأنشد إقبال قائلا :

(15 - 16) ديوان الشرقي الغربي، ص 11.

"ما كنت أصدق خيالي أنا إلا بعد أن تعرّفت على سعة الخيال
اللانهايني عند جوته" (17)

وقال إقبال في شأن جوته مرة أخرى :
« هو من الأوروبيين الشبان، شبيه بالبرق

ولكن شعلتي أنا إنما تتأرجح من تنفس مشايخ الشرق» (18)

وأثنى إقبال على الأدباء والفلاسفة الألمان ولكن ثناءه على جوته كان
متميزا - بسبب ما أشرنا إليه - لذلك نراه يذكره كثيرا في ديوان "بيام
مشرق" ويقول في شأنه شعرا مقارنا إياه بجلال الدين الرومي :

جلال وجوته

شاعر الألمان في أرض أرم
فاز بالصحبة من شيخ العجم
شاعر يشبه ذا العالي الجناب

ما نبيا لكن ذو كتاب» (19)

ويعود ذلك الثناء من إقبال إلى اطلاعه الواسع على إنتاج الفلاسفة
والأدباء الألمان وخاصة أدب جوته وذلك لإتقانه اللغة الألمانية التي
تعلمها ثم أقام في مدينة هايدلبرج (HEIDELBERG) الرومنطيقية
الشهيرة عندما قدم إلى ألمانيا التي حصل فيها على شهادة الدكتوراه في
مدينة ميونيخ سنة 1907 بإشراف الدكتور هومل (HOMMEL) أحد

(17 - 18) الحيدري راشد، محمد إقبال والثقافة الألمانية، مجلة فكر وفن، عدد 2 - سنة 1، ألمانيا،
1963، ص 31.

(19) إقبال، ديوان بيام مشرق، ص 120.

المستشرقين المتخصصين في اللغات السامية وكان موضوعها "تطور الفكر الماورائي في بلاد "فارس" The developement of Metaphysics in Persia» وكان ذلك التتويج العلمي إثر سفره إلى أوروبا سنة 1905 وبالتحديد إلى إنجلترا حيث درس الفلسفة ونال شهادة في الحقوق من جامعة كمبردج (CAMBRIDGE) (20).

وكانت رحلة إقبال - تلك - مكنته من الاطلاع على أوضاع أوروبا وعلى آثار مفكرها اطلعا كاملا فكان شديد الإعجاب بثقافة ألمانيا التي قال عنها : "إن مهمة الأمة الألمانية هي تنظيم العلم الإنساني" (21).

كل ذلك الاطلاع الواسع وذلك الإلمام بالثقافة الألمانية جعله يفضل آثار جوته ويحكم صلته بفكره ويفضله على غيره فقال في هذا الغرض : "إننا نستطيع أن ندرس تحليل الروح الإنسانية من آثار الفلاسفة والنفسانيين ولكننا لا نستطيع أن نفهم ما حقيقة الطبيعة البشرية إلا عند مطالعة آثار جوته" (22).

وكان جوته في نظر إقبال أكبر شاعر في أوروبا خاصة عند مقارنته إياه بالشاعر الإنجليزي شكسبير الذي يراه واقعا في تفكيره ذاتيا في توجهه على عكس الشاعر الألماني الذي يرى فيه مفكرا كونيا كما جاء في قوله : "يعيد شكسبير وجوته التفكير مرة أخرى في فكرة الخلق ولكن بينهما اختلاف كبير. فالإنجليزي الواقعي يفكر في الإنسان الفرد وجوته المثالي يفكر في الكون ككل. وشخصية فاوست (FAUST)

SCHIMMEL, Ane Marie: Iqbal Mohamed, Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle Edition, (20) Tome III, Leide Brill, Maisonneuve, Paris, 1975, p 1080.

(21) إقبال، ديوان بياض مشرق ، 1083 .

- مجلة فكر وفن، ص25.

(22) مجلة فكر وفن، ص29.

- وهي أشهر دراما كتبها جوته - فردية في الظاهر وهي في الحقيقة تمثل الإنسانية كلها⁽²³⁾.

وهذا الإنتاج الأدبي والفكري هو الذي أكسب جوته الشهرة العالمية التي جعلت منه أمير الشعراء الألمان⁽²⁴⁾ الذي يحمل توجهها شرقيا تمثل في كلفه بحضارة الشرق ممثلة في الحضارة العربية الإسلامية مثلما أشار إلى ذلك الباحث الألماني "مانويل فيشر" حين قال : "وكان جوته الشاعر الفريد في أوربا كلها متوجها إلى الشرق متأثرا كثيرا بالثقافة الإسلامية بصفة عامة وبالثقافة الفارسية بصفة خاصة ممثلة في مؤلفات الشعارين حافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي. ونجد عنده التفهم الشامل لقيم الإسلام الجوهرية إذ يقول في ديوانه مثلا :

"من الجنون أن يفرض كل إنسان في كل حالة رأيه ويمجده وإذا كان الإسلام معناه التسليم لله فعلى الإسلام نحيا ونموت جميعا"⁽²⁵⁾.

وهذا التوجه الروحي والفكري نحو الشرق وخاصة الحضارة العربية الإسلامية هو ما سيتجلى لنا في مواقفه من العرب والإسلام ونبية الكريم وهي القواسم المشتركة بينه وبين إقبال والتي تعكس إبرازهما لمكانة تلك الحضارة العالمية الرفيعة.

3 - جوته وإقبال والعرب

إن حياة العرب في البادية وتربيتهم على القيم السامية وما عرفوا به من شجاعة وفروسية وكرم ضيافة وسداد رأي وحكمة كل ذلك أثر في جوته وإقبال إلى حد الكلف والافتتان والدعوة إلى التحلي بتلك الخلال

(23) الشرق في مرآة الغرب، ص 83.

(24) المرجع نفسه، ص 66.

(25) إقبال، ديوان بياض مشرق، ص 88.

التي تزداد رفعتهما عند الشاعرين عند الاطلاع على القيم الجوهرية للإسلام الذي دان به العرب وانتشروا في أصقاع الدنيا فاتحين مبشرين بذلك مرسين لدعائم حضارة كونية فريدة.

فالشاعر جوته افتتق بالعرب وبتقافتهم ودعا بني قومه إلى توجيه أنظارهم إليها وجعل رواهما في المقام الأول عندهم وانبهر بما انطوى عليه الشعر العربي من حماس وحمية وارتباط بالطبيعة ودعوة إلى القيم السامية. كما ألهم جوته بالإسلام وبنبيه الكريم وعبر عن ذلك في قصائده ومؤلفاته المتنوعة - كما سيتجلى في ثنايا البحث.

وأشاد جوته بعبادات العرب وبتقاليدهم وما حباهم الله به من نعم كما جاء ذلك في ديوانه "الشرقي الغربي" حين قال :

"بلادهم الشاسعة في يسر وحبور
حباهم الله من النعم أربعا
حتى يكونوا في السلم آمنين
ووهبهم "العمامة" التي تزين
خيرا من تيجان الملوك أجمعين
وخياما بها يقيمون وينتقلون
كيما يأووا إلى أي ركن يبتغون
ثم وهبهم "سيفا" يحمي ويذود
خيرا مما يفعل السور العالي والصخرة الصيخود
كما منحهم قصيدا يشجي وقصيدا يفيد
تتلحف شوقا إليه نفوس الغيد " (26)

(26) الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، ص 69.

ومما يزيد موقف جوته من الحضارة العربية الإسلامية أدبا وثقافة
ودينا ووضوحا ما كشفت عنه الباحثة الألمانية كاتارينا مومسن
«Katharina Mommsen» أستاذة الأدب الألماني في جامعة ستانفورد
الأمريكية في كتابها "جوته والعالم العربي" الذي صدر سنة 1995 ضمن
"سلسلة عالم المعرفة" العدد 194، والذي قدمت فيه الباحثة مادة غزيرة
كشفت فيها عن عمق الإجلال العظيم الذي كان جوته يكنه للإسلام ولنبيه
الكريم وللعرب وآدابهم فتناولت في الفصل الأول: علاقة جوته بالأدب
العربي الجاهلي، وتحدثت في الفصل الثاني عن موقف جوته من الإسلام
ثم درست في الفصل الثالث ما استوحاه جوته من الأدب العربي
الإسلامي.

فالكتاب يعرض عرضا شاملا لعلاقة جوته وصلته الروحية بالحضارة
العربية الإسلامية ويسعى إلى الإجابة عن أسئلة عديدة أهمها ماذا قال
جوته في شأن العرب ؟ وما رأيه فيهم ؟ وما سبب ميل جوته للإسلام
ولنبيه الكريم ؟

والمأمل في كتاب "جوته والعالم العربي" يقف على اهتمام الشاعر
بالثقافة العربية كجزء من اهتمامه بالشرق وثقافته عموما فقد كان
مثابرا على توثيق علاقته بالثقافة العربية إلى درجة سعيه إلى تعلم اللغة
العربية فقد ساعدته الترجمات الألمانية العديدة على أن يطلع على تراث
العرب الأدبي وخاصة الشعري منه فتأثر بأسلوبه في مختلف مؤلفاته
وبالعلاقات بصفة أخص وبما تركه المستشرق هيردر مرشده وملهمه في
هذا الباب إذ قدم في ترجماته العرب وأدبهم في أروع صورة سحر بها
جوته.

صور هيردر حياة العرب وشموخهم قبل الإسلام وبعده قائلا :
"يقف العرب شامخين رافعي الرؤوس عاليا كما لو كانوا صخرة تعلو إلى

السماء، فالعربي الصامت يتكلم بلهب الكلمة وببريق حسامه، وسهام فكره الثاقب تشبه نبال قوسه... ولا يوجد شعب شجّع الشعر وارتقى به إلى تلك المنزلة التي ارتقى العرب إليها" (27).

ومجدّ هيردر ما لدى العرب من خصال في موضع آخر فقال :
"ألا ما أروع أشعار العرب إنها حقاً مرآة لطريقتهم في التفكير وفي الحياة. إنهم يتنفسون الحرية والاباء وتملاً صدورهم روح المغامرة وشرق الطموح والفروسية والشجاعة..." (28).

وأقرّ هيردر بمكانة العرب وحضارتهم وقيادتهم للعالم عامة ولأوروبا خاصة وسيطرتهم عليها وتمدينها ونقلها من طور التخلف إلى طور التحضر والراقي عن طريق ما نقلوه إليها من علوم وفنون وما تركوه فيها من آثار : "ولما اكتسح العرب وعلى مدى قرون عديدة بعض أجزاء أوروبا وسكنوها وكان لا بدّ أن يتركوا آثاراً من فنونهم الشعرية وعلومهم وعاداتهم وتقاليدهم، ولعل تأثير قوتهم الشعرية لم يكن أقل من تأثير علومهم التي كنا قد أخذناها بأكملها تقريباً من أيديهم أما العادات فما هي في الواقع سوى النتيجة المترتبة على الأمرين... وهكذا بدا في الأفق الأوروبي ذوق جديد يستشرف كل ما هو جميل ويشيد بالمغامرة... دون أن يلاحظ من قبل، من الجنوب إلى الشمال" (29).

ومن أطرف ما سحر به جوته من أدب العرب كتاب "ألف ليلة وليلة" الذي أعجب به كثيراً وضمّنه أشعاره كما جاء في بعض الأبيات :

(27) جوته والعالم العربي، ص 89.

(28) المرجع نفسه، ص 39.

(29) جوته والعالم العربي، ص 39.

"أي حظ طيب هذا الذي قادم إليك هنا
مباشرة من ألف ليلة وليلة
لو استطعت أن تتشبه بشهرزاد بخصوبة عطاياها
لوعدتك وعدا صادقا بأسمى الهدايا" (30)

ولم يخف جوته تأثره بالمعلقات واطلاعه عليها كلها وسعيه إلى
ترجمتها من الإنجليزية إلى الألمانية والنظم على منوالها مثلما جاء في
قصيدة له بعنوان "دعوني أبك محاطا بالليل" على غرار قصيدة إمري
القيس "قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل".
فقد أنشد جوته : "دعوني أبك، محاطا بالليل
في الفلوات الشاسعة بغير حدود" (31)

وكثيرا ما نجد في قصائده ألفاظا وردت في الشعر الجاهلي من
مثل الصحراء والقوافل والحاداة والأطلال وفراق الأحبة... وفي ذلك تعبير
صادق عن ولوع الشاعر بمضامين المعلقات وسعيه إلى محاولة التجربة
التي عاشها الشاعر الجاهلي، فانظر كيف يصف جوته تلك المعلقات
وصفا دقيقا : "معلقة إمري القيس رقيقة بهيجة، لماعة، أنيقة، متنوعة،
سارة. أما معلقة طرفة فجرينة، حية، وثابة، ويشيع فيها نوع من البهجة.
وقصيدة زهير قاسية، عنيفة، حافلة بالحكم والجمل الجليلة. وقصيدة لبيد
خفيفة، أنيقة، رقيقة... وقصيدة عنتره متكبرة، مهددة، رائعة" (32).

(30) المرجع نفسه ، ص29.

(31) المرجع نفسه، ص69 - 70.

(32) جوته والعالم العربي، ص 66.

والتأمل في قصيدة "هجرة" التي كتبها جوته بنطقها العربي يدرك مدى تأثير المعلقات في الديوان الشرقي وكيف صوّر الشاعر نفسه على هيئة رحّال يهاجر إلى الشرق (هجرة فكرية روحية) وحال بلوغه إياه يتمثل عادات أهله وأحوالهم وما يشيع بينهم من أفكار وآراء، بل إنه لا ينكر اتهامه بأنه مسلم حق" (33).

وجاء في قصيدة هجرة ما يلي :

"فلنهاجر إذا إلى الشرق الطاهر الصافي
كي تستروح نسيم الآباء الأولين
إلى هنالك حيث الطهر والحق والصفاء"، (34)

ويختم جوته حديثه عن الشرق وعلاقته بالغرب مبرزاً الترابط المتين بينهما قائلاً :

"ومن يعرف نفسه وغيره
سيعرف هنا أيضاً
أن الشرق والغرب
لن يفترقا أبداً " (35)

أما محمد إقبال الشاعر والفيلسوف المعاصر، فهو ينحدر من أسرة ذات جذور برهمية أسلمت قبل عدّة قرون نشأ وتربّى بين أبوين مسلمين وحفظ القرآن وتعلّم العربية منذ نعومة أظافره إلى جانب اللغتين الأوردية والفارسية ثم الإنجليزية في مدرسة البعثة الإسكوتية. وتدرّج في

(33) المرجع نفسه، ص 88.

(34) جوته والعالم العربي، ص 88.

(35) المرجع نفسه، ص 30.

مراتب العلوم والعرفان حتى نال أسمى المراتب وأعلى الدرجات دارسا ومدرّسا داخل الهند وخارجها وعرف في الشرق والغرب شاعرا وفيلسوبا وعالما متبحرا نال شهرة أدبية عالمية ترجمت عنها دواوينه الشعرية التسعة ومحاضراته ومراسلاته مع عظماء رجال عصره في الشعر والفلسفة وغيرهما.

كان إقبال شديد الإعجاب بالعرب وبآدابهم وبحضارتهم وكان يشيد بهم ويثني عليهم ويتّخذهم المثل الأعلى للإنسانية الجديرة بالحياة والبقاء⁽³⁶⁾ وكان يؤمن بأنهم سيكونون بناء العالم الجديد في المستقبل كما كانوا بناء العالم القديم في الماضي⁽³⁷⁾.

ولا يستنكف إقبال من انتسابه للعرب بل نراه يفخر بذلك ويقرّ بأنه كمسلم هندي فإنه عربي وأن فكره عربي :

"أنا أعجمي الدني لكن خمرتي

صنع الحجار وكرمها الفينان

إن كان لي نغم الهنود ولحنهم

لكن هذا الصوت من عدنان"⁽³⁸⁾

كان تأثر إقبال بالشعر العربي شديدا وإعجابه به قويا لما يشتمل عليه من معاني البطولة والفروسية لذلك عارض الخروج عن التقسيمات

(36) طه حسين، مقال إقبال شاعر فرض نفسه على الدنيا والزمان، ضمن مجلة الوعي الباكستانية، عدد 12، س 14، ديسمبر 1969، ص 3.

(37) مقال عبد العزيز، "القضية القومية في فكر محمد إقبال"، مجلة دراسات يمنية، العدد 55، صنعاء، اليمن، ديسمبر 1997، ص 14.

(38) الأعظمي وشعلان، فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند والباكستان، دار الاحياء، القاهرة، 1950، ص 88.

العروضية العربية قانلا : "إننا لو خالفنا قاعدة العروض فإن قلعة الشعر تنهدم وعلى الشعراء الحاليين أن ينهجوا أسلوب التعمير، لا التخريب" (39).

وكان إقبال يحفظ الكثير من الأشعار العربية التي تركت أثرا واضحا في إنتاجه ويرجع ذلك إلى أن العربية متعلقة بالعرب، وأن العرب أعزاء على إقبال. لذلك كان يحنّ إلى حياتهم اليومية التي كانت تقوم على السفر والترحال، فهم اليوم هنا وغدا هناك بحثا عن رزق جديد وعيون ماء وعن مروج ومراع جديدة (40).

وانتقل أثر هذه الحياة إلى شعراء المسلمين فتأثروا به وكان إقبال في زمرة هؤلاء الشعراء إذ ظلمت اللغة والحياة العربية أدبه بفرعيه الفارسي والأوردي على الرغم من تأثره بشعراء وفلاسفة غير عرب من مثل جلال الدين الرومي ونيتشة وبرجسون وجوته.

ويظهر تأثر إقبال بالأدب العربي بطرق مختلفة إذ يأتي بعضه واضحا صريحا وبعضه تلميحا ويأتي البعض الآخر في صور شعرية تؤكد على أن العرب هم صانعو التمدن ومؤسسو النظم الأخلاقية وهم فاتحو العالم وزينته.

والقارئ لشعر إقبال تصادفه كلمات كثيرة يستدعيها المقام من مثل القافية والزمّام والمقام والسبيل والخيمة والنخل (41) كما يذكر العديد من أسماء الشعراء العرب كامرئ القيس وعمرو ابن كلثوم وزهير ابن أبي سلمى والمعرّي والبوصيري والمتنبّي وغيرهم...

(39) عبد الحميد إبراهيم سمير ، إقبال والعرب، نشر مكتبة دار السلام، الرياض، 1413 هجري، ص39.

(40) المرجع نفسه، ص31.

(41) المصدر نفسه، ص34.

كما أحيا إقبال ألفاظا انقرض استعمالها في عالم الشعر الأوردي من مثل حج، طواف، زكاة، أذان، توحيد، جمال، جلال، ضرب، كليم، خليل، معجزة، وحي، مصحف، جبريل، فيض، شعور، ذوق، تبسم⁽⁴²⁾.

كل ذلك يعكس اهتمام إقبال باللغة العربية وبالأدب العربي الذي تشرّبه وهام به. ونسج على منواله تقديرا منه للعرب ولدورهم التاريخي وحضارتهم، وللغتهم التي نزل بها الوحي، والتي عوّده أبوه على تلاوة القرآن الكريم بها كل صباح. وقام بتدريسها كأستاذ بجامعة لندن لبضعة أشهر عندما حلّ محلّ أستاذه المستشرق "توماس أرنولد".

ولا يقتصر اهتمام إقبال بلغة العرب وأدبهم بل نراه شغوفًا بكل ما يتصل بحضارتهم من قريب ومن بعيد باحثًا في تراث الإسلام وحضارته وتاريخه وما خلقه أعلامه من علوم وما أبدعوا من فنون متنقلا بين أرجاء العالم العربي بروحه عائشا في ربوعه من مشرقه إلى مغربه داعيا إلى إحياء المجد الحضاري التليد مضمنا أشعاره أحاسيسه وأمانيه ونصائحه حتى ليخاله الدارس شاعر العرب الأول⁽⁴³⁾.

فانظر إليه كيف يثبت فخره بأنغامه العربية قائلا :

"أتراهم يرون عزف مزماري ؟

نفس هندي ونغم عربي"⁽⁴⁴⁾

(42) عبد الحميد إبراهيم سمير ، إقبال والعرب، نشر مكتبة دار السلام، الرياض، 1413 هجري، ص39.

(43) عبد المعين الملوحي ، مقدمة ديوان جناح جبريل للشاعر إقبال، نشر دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق، 1987، ص64.

(44) سمير عبد الحميد، إقبال والعرب، ص165.

وانظر إليه كيف يذكر أمة العرب بمآثرها وفضلها على الأمم الأخرى
ويدعوها إلى العودة لتوجيه مسيرة الأيام من جديد :

"شعب العروبة والمجد المؤثل في بدو وفي حضر حتى ضحى المحشر
من الذي حرر الدنيا لخالقها واسمع الخلق لا كسرى ولا قيصر
يا أيها العربي انظر لعصرك في دنيا يفوز بها من أحكم النظرا
بالسلم بالعدل تبني ما تؤمله إن شاء للأرض عمراننا فكن عمرا" (45)

4 - صلة جوته وإقبال بالإسلام :

إن إعجاب كل من جوته وإقبال بالحضارة العربية الإسلامية ممثلة في
الإسلام ونبيه الكريم وما أحدثاه من نقلة نوعية في تاريخ الحضارة
الإنسانية دفع بهما إلى تضمين ذلك في أشعارهما والدعوة إلى تمثل القيم
الروحية التي جاء بها الدين الحنيف في ظل عالم سيطرت فيه النزعة
المادية وطغت فيه الأنانية وخفتت فيه القيم الإنسانية.

فالتأمل في صلة جوته الروحية بالإسلام يلحظ دون شك أن جوته
قد تأثر بالإسلام وتعرف عليه من خلال دراساته الواسعة ومن خلال
تأثره بدراسات استشراقية منصفة تناولت الدين الحنيف ونبيه الكريم
وخاصة ما كتبه مرشده وملهمه المستشرق هيردر الذي أثنى في كتابه
"أفكار" على شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعلى عقيدة
التوحيد التي جاء بها الإسلام وطريقة عبادة الإله الواحد الصمد، كما أشاد
بالمستوى الثقافي والحضاري الرفيع الذي بلغه المسلمون (46).

(45) إقبال، ديوان "والآن ماذا نصنع يا أم الشرق"، ترجمة الصاوي شعلان ومحمود أحمد غازي
شعرا، دار الفكر، دمشق، 1982، ص 113 - 114 .

(46) جوته والعالم العربي، ص 182 .

ووصل تقدير هيردر الكبير للإسلام وللقرآن الكريم إلى حد تمنّي
توفّر كتاب مثله لدى الجرمان لكي يقودوا أوروبا عن طريقه فقال : "لو
توفّر للجرمان الذين غزوا أوروبا كتاب شبيه بالقرآن لما غدت اللاتينية
أبدا سيدة لغتهم، ولا تفرّقت قبائلهم وظلت كل سبيل" (47).

وألهم جوته إلهاما شديدا بالإسلام وبكتابه العظيم وبنبيه الكريم وعبر
عن ذلك بقوله : "إن أسلوب القرآن محكم ... سام مثير للدهشة وفي
مواضع عديدة يبلغ قمة السمو حقا" (48).

وتشير الباحثة الألمانية "كاترينا مومزن" إلى أن اهتمام جوته
وتعاطفه مع الإسلام يترافق مع كامل مراحل عمره من طفولته إلى
شيخوخته كما عكستها أشعاره حتى أنه أعلن على الملأ عند بلوغه السبعين
أنه يعتزم أن يحتفل في خشوع بتلك الليلة المقدسة التي أنزل فيها
القرآن (49)، ووصل الأمر إلى حدّ الدهشة حين أعلن جوته نفسه عند
صدور الديوان الشرقي أنه "لا يكره أن يقال عنه مسلم" (50). كما يزيد
الأمر تأكيدا حيث يثبت إيمانه بجوهر مبادئ الإسلام التي اطلع عليها من
خلال قوله : "إذا كان معنى الإسلام أن لله التسليم، فإننا جميعا نحيا
ونموت مسلمين" (51).

كما حظيت عقيدة التوحيد عند جوته بأعظم منزلة، تلك العقيدة
التي أقام عليها تعاطفه مع الإسلام. فأكد أن الله خالق كل شيء وأن ما

(47 - 48) جوته والعالم العربي، ص 188.

(49 - 50) المرجع نفسه، ص 177.

(51) المرجع نفسه، ص 233.

خلقه يعكس عظمة قدرته، ويدعو إلى توحيده، وأن التوحيد هو أساس العقيدة الإسلامية التي تميّز بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم⁽⁵²⁾.

فقد أثبت جوته صفة التوحيد لله ومجّده بأعظم الصفات الإلهية. كما جاء في قصيدة "طلاسّم" التي ذكر فيها "أسماء الله المائة" :

"إنه وحده العدل
يهدي الناس جميعا للحق
فلتسبحوا إذن بهذا الاسم المكين
من بين أسمائه المائة أمين " (53)

وآمن الشاعر بمشيئة الله والتسليم له في كل كبيرة وصغيرة باعتباراه خالق كل شيء ومدبّره :

"ماذا تريد أن تصنع بالعالم ؟ لقد تمّ صنعه
وربّ الخلق دبّر كل شيء
تحدّد نصيبك، فاتبع السبيل
بدأ الطريق، فأتمّ الرحلة،
لم تغير منه الهموم والأحزان
بل ستظل تطيح بك بعيدا عن الاتزان" (54)

وكتب جوته بأسلوب مشبع بالإيمان والتسليم بالقضاء والقدر إلى أحد أصدقائه قائلا : "لا يسعني إلا أن أكثر من أني أحاول هنا أيضا أن ألوذ بالإسلام" (55).

(52) المرجع نفسه، ص 197 - 196.

(53) الديوان الشرقي، ص 65.

(54) جوته والعالم العربي، ص 246.

(55 - 56) المرجع نفسه، ص 232.

وأثبت جوته التوجه نفسه عند مراسلته لأحد أصدقائه قائلا : "بما يحفز على التفكير... أن الإسلام سنقرّ به نحن جميعا إن عاجلا أو آجلا" (56).

وتمثل جوته أي الذكر الحكيم واقتبس العديد منها في أشعاره وخاصة منها المتعلقة بعقيدة التوحيد متأثرا في ذلك بما وقف عليه من ترجمات ألمانية. فقد ألهمته الآية الكريمة : "ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّة وجه الله إن الله واسع عليم" (57) رباعيته الشهيرة التي قال فيها :

" لله المشرق

لله المغرب

والأرض شمالا

والأرض جنوبا

تسكن آمنة

ما بين يديه"

كما تتكرر آيات كثيرة اطلع عليها جوته في الترجمات المشار إليها من مثل قوله سبحانه : "بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (58) وقوله : "ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى

(57) البقرة ، 115 .

(58) البقرة ، 112 .

الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين
البأس أولئك هم المتقون" (59).

فآية البر هذه رأى فيها الشاعر جوته دعوة صريحة إلى أعمال البر
والإحسان التي كان يسعى هو بدوره إلى ممارستها طيلة حياته (60).

أما فيما يتعلق باهتمام جوته بشخصية النبي محمد صلى الله عليه
وسلم، فإن الباحث يلحظ إعجابه به وتتبعه لكل أثر يشير إليه من قريب
أو من بعيد وتدوين ذلك في سجلاته فهو يرى أنه حقق لأمته رقيًا
نوعيًا على الرغم من كونه أميًا، ويؤلف مسرحية عرفت "بترنيمة محمد"
أشاد فيها بخصاله وبعظمته بين الأنبياء ويدير في جزء منها حوارًا بين
علي وفاطمة وهما يسعيان إلى الانضمام إلى البحر المحيط الذي تصب فيه
كل الأودية إذ يرمز إلى الألوهية التي تحوي ما يأتي به النهر (محمد)
ضامًا إليه ما تأتي به الجداول مجتزئ بعضًا منها كما أوردته الباحثة
"كاترينا مومزن" : (61)

- "علي : انظر إلى السيل العارم القوي قد انحدر من الجبل الشامخ
العليّ متألقًا كأنه الكوكب الدري.

- فاطمة : لقد أرضعته من وراء السحاب ملائكة الخير في مهده
بين الصخور والأدغال.

- علي : وإنه لينهمر من السحاب مندفعًا في عنفوان الشباب ولا
يزال في انحداره... متوثبًا نحو السماء، متهللاً تهليل الفرح".

(59) البقرة، 119.

(60) جوته والعالم العربي، ص 196.

(61) المرجع نفسه، ص 204 - 205.

لقد صورّ جوته محمد صلى الله عليه وسلم في بعض أبيات هذه المسرحية في رفق وهدوء ثم لا يلبث أن يتحول إلى سيل عارم تتعاظم قوته الروحية لتصب أخيرا في البحر المحيط رمز الألوهية.

وهكذا تتجلى لنا صلة جوته بالإسلام وبنبيه الكريم ولو بإيجاز ويتكشف لنا ذلك الغنى الروحي في تجربته حيال الإسلام وقيمه الجوهرية وحضارته العالمية التي ألهمت شاعريته وخفقت في معظم كتاباته كما قيل عنه إنه منتش بالنسمة المشرقية ملتهب دمه بالجمرة الشاعرية كما كشف عن ذلك ديوانه المشرقي...

فما أحرانا (نحن العرب) أن نحتمي بشاعر مثل جوته أظهر كل الإعجاب والتقدير لتراثنا وثقافتنا وديننا وحضارتنا وكان وسيطا بارزا بيننا وبين بني جلدته ومحاورا عالميا بين الثقافات والحضارات وخاصة الثقافتين والحضارتين الغربية والعربية الإسلامية.

أما فيما يتعلق بإقبال، فإن الأمر يختلف فيه - نوعا ما - عن جوته، فهو مسلم النشأة والعقيدة والثقافة هام بالإسلام وبنبيه الكريم. وأحب صحابته الكرام، وذكرهم بكل ثناء وتقدير وأشاد بالعرب المسلمين الفاتحين الذين كان يرى فيهم مربيي الشرق والغرب وأصحاب عقول حسيّة وبصيرة نافذة، يوم كانت أوربا تقبع في دياجير الجهل والظلام. فسخر لكل ذلك أشعاره واستنهض همهم ورأى فيهم الأمل المنشود لبناء الحضارة من جديد كما كانوا بناتها ورعاتها وحملتها شرقا وغربا، عندما كانوا شديدي الإيمان بالله، سائرين على خطى رسولهم الكريم، معزين بأنفسهم رافعين لواء العدل والحرية والإخاء والمساواة. لقد أكد إقبال على أن العربي المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار، ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية... لأنه صاحب الرسالة، وصاحب

العلم واليقين... فليس مقامه مقام التقليد والاتباع وإنما مقامه مقام القيادة والتوجيه⁽⁶²⁾.

وهتف صوت إقبال إلى الأمة العربية مدويا مستنهضا ومذكرا بالأمجاد الحضارية ومقارنا بما وصل إليه الحال وداعيا إلى إعادة الحياة من جديد ونبذ التفرقة والسعي إلى استباق العصر قبل فوات الأوان كما سجل ذلك في ديوانه "والآن ما نصنع يا أم الشرق" حين قال في قصيدته⁽⁶³⁾ إلى "الأمة العربية" :

"أمة الصحراء يا شعب الخلود من سواكم حلّ أغلال الوري
أي داع قبلكم في ذا الوجود صاح لا كسرى هنا لا قيصرا
كل شعب قام بيني نهضة وأرى بنيانكم منقسما
في قديم الدهر كنتم أمة لهف نفس كيف صرتم أمما"
وواصل إقبال قائلا :

"كل من أهمل ذاتيته فهو أولى الناس طرا بالعناء
لن يرى في الدهر قوميته كل من قلد عيش الغرباء
فكروا في عصركم واستبقوا طالما كنتم جمالا للعصر
واملؤوا الصحراء عزما واخلقوا مرة أخرى بها روح عمر".⁽⁶⁴⁾

وهكذا يقف الدارس على مكانة العرب وحضارتهم عند إقبال الذي رأى فيهم المثل الأعلى للإنسانية وآمن بأنهم سيكونون بناء العالم الجديد في المستقبل لما يملكونه من مقومات البناء الحضاري وانتسب إليهم بفكره

(62) الطيرازي عبدالله، مقال الشاعر محمد إقبال سيرته وشعره، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 5، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، 1985، ص 88.

(63) ديوان "ماذا نصنع يا أم الشرق"، ص 115-116.

(64) ديوان "ماذا نصنع يا أم الشرق"، ص 118.

وروحه فظلت أدبه لغة الوحي وتخللت أشعاره التي دعاهم فيها إلى اليقظة والنهضة مرةً أخرى للحاق بركب الحضارة ونهاهم عن الفرقة والانقسام.

وبذلك يتضح مدى توافقه مع الشاعر الألماني "جوته" في الإشادة بالحضارة العربية الإسلامية والدعوة إلى تمثل ما جاء فيها من قيم روحية وإنسانية نبيلة تطفئ ظمأً إنسان القرن العشرين الذي أثرت فيه النزعة المادية والتي أفقدته توازنه وجعلته يشكو فراغاً روحياً لا نظير له في تاريخ الحضارة الإنسانية.

وهذا التوافق الفكري والروحي بين الرجلين وارتباطهما بمثل حضارتنا وإقامتهما لحوار نموذجي بينها وبين الثقافة والحضارة الألمانية خاصة والأوروبية عامة يدفعنا إلى إكبارهما وإجلالهما والاعتراف لهما بالفضل والنسج على منوالهما في الحفاظ على كنوز تراثنا وحضارتنا، بما فيها من قيم لا تزال صالحة لكل زمان ومكان. ومن يحافظ على تراثه يحافظ على ذاتيته، في ظل عالم أصبح قرية كونية بما حدث فيه من انفجار علمي، ومعرفي، ومعلوماتي يسوقه نحو عوالة لم تتحدد معالمها بعد.